لَمَحَاتٌ عِلْمِيَّةٌ وَقُطُوفٌ تَفْسِيرِيَّةٌ

د. محمد دودح
الباحث العلمي بالهيئة العالميــة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

لَمَحَاتٌ عِلْمِيَّــةٌ وَقُطُوفٌ تَفْسِيرِيَّةٌ

د. محمد دودح

الباحث العلمي بالهيئة العالميــة للإعجاز العلمي في القرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

المُقَدِّمَة

لا خلاف في المنهج بين مفسري اليوم للآيات الكونية ومفسري الأمس؛ سوى تَجَلِّي بعض خفايا الخليقة بعد اكتشاف المنظار والمجهر وتطور وسائل الرصد، لتسطع البينة على أن هذا القرآن هو الحق، ولو كان مُفَسِّرِي الأمس مُعَاصِرِين لَسَارَعُوا إلى تفسير الآيات الكونية بالحقائق العلمية، فقد فاضت كتبهم ومن سار على دربهم بوجوه من الإعجاز في القرآن الكريم.

قَالَ الْفَخر الرازي: ""كَانَ عمر بن الحسام يقْرَأ كتاب المجسطي على عمر الْأَبْهَرِيّ فَقَالَ لَهما بعض الْفُقَهَاء يَوْمًا: مَا الَّذِي تقرأونه؟ فَقَالَ الْأَبْهَرِيّ أفسر قَوْله تَعَالَى {أفلم ينْظرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقهم كَيفَ بنيناها} فَأَنا أفسر كَيْفيَّة بنائها، وَلَقَد صدق الْأَبْهَرِيّ فِيمَا قَالَ؛ فَإِن كل من كَانَ أَكثر توغلا فِي بحار الْمَخْلُوقَات كَانَ أَكثر علمًا بِجلَال الله تَعَالَى وعظمته"[1]، والمجسطي هذا كتاب قديم في الفلك والرياضيات ألفه بطليموس حوالي عام ١٤٨م في الاسكندرية، وترجمه إلى العربية حنين بن إسحاق العبادي في عهد المأمون حوالي عام ٨٢٧م[2]، فما بالك بالمجلدات اليوم المزدانة بمفاخر الكشوف ومآثر العلوم!.

وتأتي الملامح العلمية بعفوية وتلطف لا يلفت عن غرض الإيمان، ولا مجال لاستنباط وجه علمي بمعزل عن تفهم بديع أساليب البيان، والخشية من تغير الحقائق العلمية مع الزمن حرص محمود؛ لكن الحقائق ثوابت لا تتغير مع الزمن كظلمة البحر العميق، والقول بأن الاجتهاد قد يصيب وقد يخيب صحيح؛ ولكن حرص المتضلعين بعلوم اللغة والشريعة والطبيعة كفيل بالتصويب.

والتفسير بالعلوم يُوَضِّح ما انتظرته الأيام ليتجلى ويسطع ويتحقق وعد جازم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ص:٨٧و٨٨، ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ٤١فصلت:٥٣، ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٢٧النمل:٩٣، ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ. لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ٦الأنعام:٦٦و٦٧، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ ١٠يونس:٣٩، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ٣٨ص:٨٧و٨٨.

د. محمد دودح

[1] فخر الدين الرازي؛ مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة؛ ١٤٢٠هـ (١٤\ ١٥٤).

[2] موسوعة ويكيبيديا والشبكة الدولية.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٢البقرة: ٢٩.

Paragraph الفَقْرَة

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ٢البقرة:٢٨و٢٩.

keywords كَلِمَات إِرْشَادِيَّة

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾، ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾.

Translation (تَفْسِيرِيَّة) تَرْجَمَة

He is the One who created for you all what is inside the earth, then turned to the (local) **sky and fashioned it as seven** (specific) **heavens** (layers)**, and He is fully aware of all things.**

لمَحَات بَيَانِيَّة وعِلْمِيَّة

Eloquent & Scientific Hints

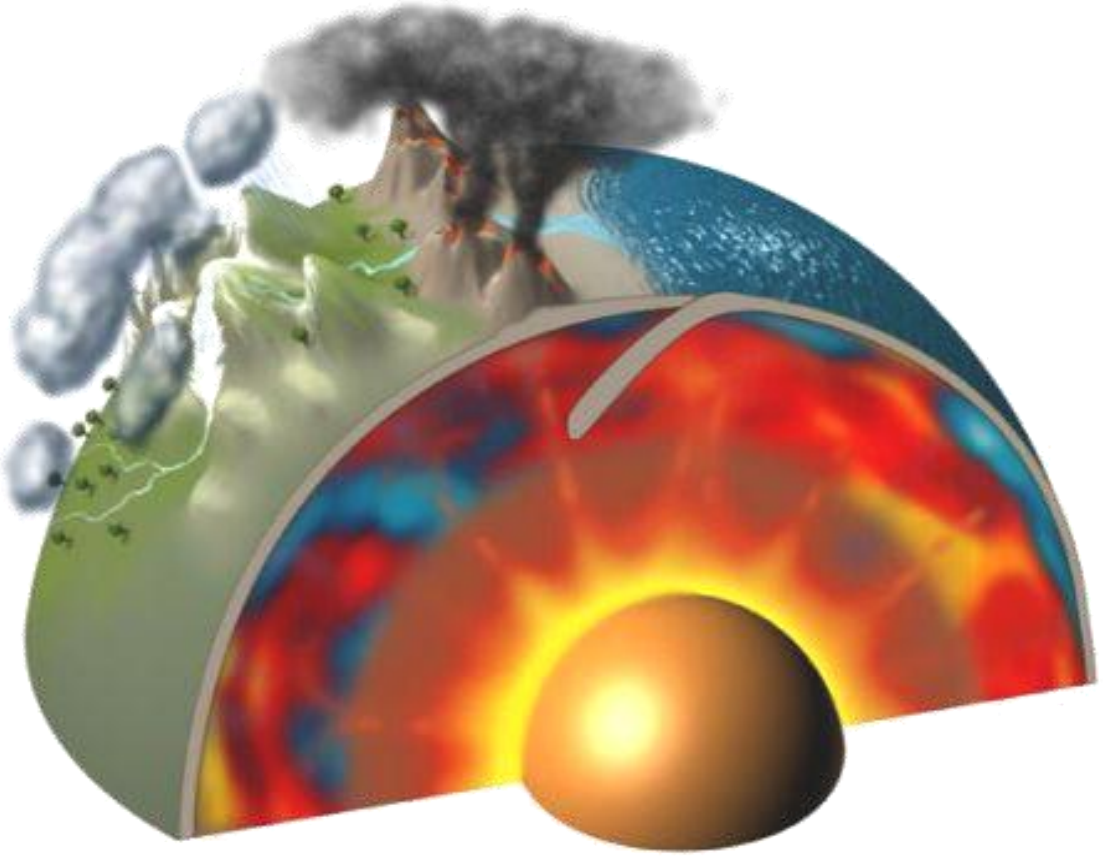

قد نال لفظ (الأرض) ولفظ (السماء) كبير اهتمام في القرآن الكريم؛ وتنوعت دلالة كل منهما وفقًا لقرائن السياق، وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾؛ المُتبادر في ضوء المعارف الحديثة أن الأرض لم تكن مُشَكَّلَة طبقات؛ ثم تَشَكَّلَت جميع طبقاتها الداخلية قبل تَشَكُّل الجو إلى طبقات كذلك؛ تهيئةً للإنسان القادم من بعد، وهذا يعني أن الغلاف الصخري للأرض تَشَكَّلَ أثناء تَشَكُّل الغلاف الجوي؛ والقرينة هي: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، فلم يقل: (خلق لكم الأرض) بل (ما فيها)، ولفظ (جَمِيعًا) يوافق طبقيتها في مقابل التصريح بطبقية سماء الأرض، ولا تبعد تلك الدلالات إذن عن وصف العالم المَحَلِّي للأرض والجو المُحِيط، والترتيب في مقام الخلق دلالته أن السطح الصخري للأرض المماثل للفراش المبسوط تَشَكَّلَ مع الجو المحيط كالبناء عقب تشكل جرم الأرض، فلم يكن لها سطح للتصريح بضرورة النظر: ﴿إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ ٨٨الغاشية:٢٠.

تشكل الجو من دخان البراكين العملاقة؛ ومع تبرد سطح الأرض انقشع الدخان وتحول الجو إلى طبقات.

والتعبير: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾؛ صريح بأن الجو الأولي كان قاتمًا مفعمًا بالدخان الكثيف، وهو يعكس حالة الالتهاب الشديدة للأرض قبل تشكل سطحها نتيجة براكين أولية عملاقة أطلقت ذلك الدخان الكثيف، وهذا يؤكد أن الجو تشكل مع الغلاف الصخري للأرض، ويعني أن جعل الرواسي وتسوية الجو طبقات حدث واحد.

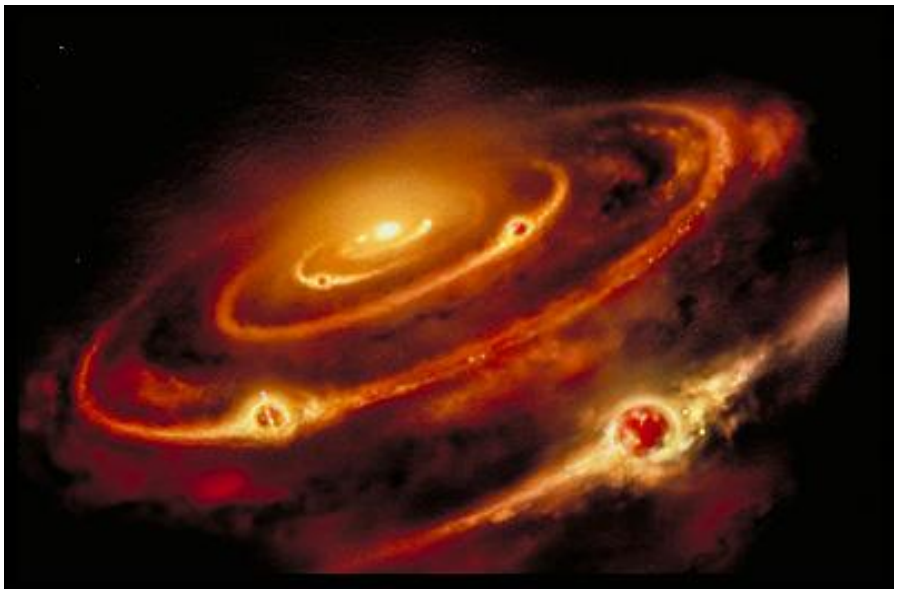

وتُحَاكِي النصوص التَّصَوُّر العلمي بأن أصل الشمس وتوابعها غيمة سديمية Solar Nebula، انفصلت أجزاء؛ وتحت تأثير جاذبية كل منها تَكَدَّسَت المادة فَتَوَلَّدَت حرارة سَبَّبَت التهاب سَطْحَي الأرض والقمر قبل التَّبَرُّد والاستقرار، والوحدة التي جمعت لبنة من معمار الكون في الأصل وهي النظام الشمسي؛ تصلح للتفهم بوحدة الكون كله في الأصل، ويؤيد وحدة الكون في الأصل البيان المُرَتَّب المراحل في مقام الخلق: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ. وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ. وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ٢١الأنبياء:٣٠-٣٢، فُتِق الثوب وبقي النسيج واحد شاهدًا على وحدة الأصل؛ إلكترون وبروتون ونيوترون هي اللبنات الأساسية لكل الأجرام الفلكية بالكون.

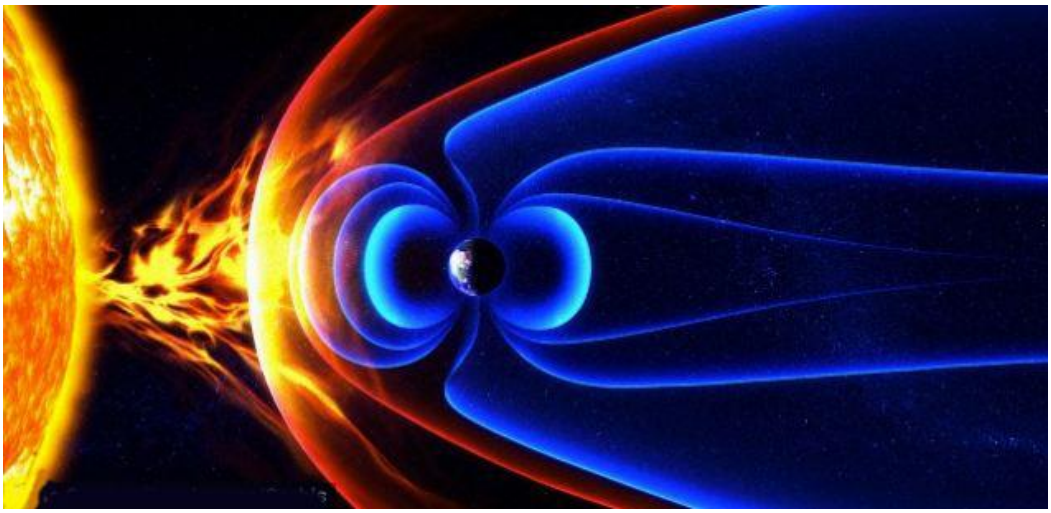

ودلالة المصابيح في التعبير: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ ٤١فصلت:١٢؛ فسرها القرآن الكريم بالرجوم والشهب: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ ٦٧الملك:٥، ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ ١٥الحجر:١٦-١٨، ووظيفة الحفظ في التعبير: ﴿بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾؛ بيان لنعمة مُماثلة تشارك الشهب في الزينة والحفظ من أخطار الفضاء الخارجي، ولم يُعرف إلا حديثًا أن الغلاف المغناطيسي هو سبب تلألؤ الأضواء القطبية الخلابة؛ وأنه يحفظ الحياة على الأرض من خطر الرياح الشمسية، والسياق إذن يتعلق بالجو لا الفضاء الخارجي، وليس التلطف في البيان إلا لإيصال حقائق مُدَّخَرَة لقادم الأيام بلا صدام مع معارف الأولين يلفت عن غرض الإيمان بوحدانية القدير والاستعداد ليوم الرحيل.

وفي التمثيل للأرض الأولية والجو بعقلاء مُكَلَّفِين: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾؛ دلالة على أن الدخان كان يتبدد ولا يرافق الأرض في سيرها بمدارها حتى استقر وتحول لطبقات وأصبح سقفًا محفوظًا، فالإتيان لازمه الحركة؛ وهي تعود على الأرض والجو المحيط، والتعبير (ائْتِيَا) و(أَتَيْنَا) يعنى ملازمة الحركة أي معًا، وتوجيه الأمر لهما معًا يفيد عدم التلازم إلى أن صدر هذا الأمر؛ مما يتفق مع المعرفة حديثًا بتبدد الجو الأولي خلفها.

العدد	اسم النطاق أو الطبقة	الارتفاع (فوق مستوى سطح البحر)	الخصائص
١	الطبقة المناخية Troposphere (نطاق التغيرات الجوية)	من ٦ كم عند القطبين إلى ١٨ كم عند خط الاستواء.	يحوي ٨٥ % من كتلة الجو، ويقل الضغط بالارتفاع وكذلك درجة الحرارة لتبلغ ٦٠ درجة مئوية تحت الصفر عند قمته، ويختص بالرياح والسحب.
٢ و ٣	الطبقة فوق المناخية Stratosphere تتخللها طبقة الأوزون Ozone Layer	٥٠ كم، وتتخللها طبقة الأوزون على ارتفاع بين ٢٠ و ٣٠ كم.	تقوم طبقة الأوزون بحجب نسبة كبيرة من الأشعة فوق البنفسجية الضارة، وينخفض الضغط الجوي حتى يصل إلى ٠.٠١ ضغط جوي عند قمة النطاق.
٤	النطاق المتوسط Mesosphere	٥٠ – ٨٥ كم	يشارك في الحماية من النيازك، ودرجة الحرارة أعلاه حوالي ٩٠ درجة مئوية تحت الصفر.
٥ و ٦	النطاق الحراري Thermosphere يتخلله نطاق التأين Ionosphere	يبلغ ارتفاع أكثر من ٥٠٠ كم، ونطاق التأين حوالي ٤٠٠ كم.	ترتفع أعلاه درجة الحرارة، وتحدث فيه ظاهرة الشفق القطبي، ودوره مهم في الاتصالات اللاسلكية لأنه يعكس موجات الراديو، ويعقبه النطاق الخارجي Exosphere الذي يصل لأكثر من ١٠٠٠ كم؛ لكن الهواء يكاد يكون منعدما لدرجة أن تنطلق ذرة غازية عند أسفله نحو ١٠ كم قبل أن تصطدم بذرة غازية أخرى؛ ويتزايد التخلخل إلى أن يتصل بالفضاء الخارجي (*).
٧	نطاق الغلاف المغناطيسي Magnetosphere	يمتد لحوالي ٥٠ ألف كم، وارتفاع الحزام الداخلي حوالي ٢٠٠٠ كم.	يقوم بدور الحماية من الرياح الشمسية الخطيرة.

(*) موسوعة ويكيبيديا العالمية والشبكة الدولية.

الطبقات الوظيفية للغلاف الجوي: أربع طبقات رئيسة يتخللها طبقتين فرعيتين؛ بالإضافة إلى الغلاف المغناطيسي.

وفي سياق وصف الجو ظاهر دلالة التعبير: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾، ونظيره: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾؛ هو تكونه من طبقات، وطبقية الجو لا تميزها عين فناسبها التعبير بالإبهام: (وَمَا بَيْنَهُمَا)؛ وعود الضمير في الكلمتين (فَسَوَّاهُنَّ) و(فَقَضَاهُنَّ) إلى غير مذكور، والتعبير: (وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا)؛ صريح في أن كل طبقة جوية تتميز بخصيصة نافعة، بخلاف السموات العلى التي لا تتميز كل منها سوى بزيادة في الأبعاد والمكونات من عناقيد الأجرام السماوية، ورغم ما ذكره المفسرون من أن العدد (سَبْعَ) قد لا يعني ظاهره ؛ فطبقات الجو بالفعل سبع، أربع طبقات رئيسة تتخللها طبقتان فرعيتان، والمجموع ست طبقات؛ بالإضافة للغلاف المغناطيسي الذي يحمينا من الرياح الشمسية الخطيرة، وتمتد الطبقة الأخيرة حيث يوجد هواء Exosphere إلى أكثر من ١٠٠٠ كم، ولكن لا يكاد يكون لها تأثير يُذكر، ورد في الموسوعة العالمية: "تُصبح جزيئات الهواء نادرة الوجود في طبقة إكسوسفير إلى حد إنها تُعد غير موجودة، فمثلاً عند أسفلها من الممكن أن تنطلق ذرة غازية نحو ١٠ كيلومتر قبل أن تصطدم بذرة غازية أخرى"[٣].

قال الدكتور فؤاد دمشقي: "قد وضعت تصانيف عديدة للغلاف الجوي ولكن القرآن الكريم صنف طبقات الغلاف الجوي.. بحسب الوظيفة، وبالرجوع إلى طبقات الجو المكتشفة حديثاً نجد فقط سبع طبقات وظيفية متمايزة"[٤]، وقال عدنان أوكطار: "كلمة (السماوات).. تستعمل للإشارة إلى السماء فوق الدنيا (الملاصقة للأرض)؛ كما تستعمل للدلالة على الكون بأكمله، ومع الأخذ بالدلالة الأولى للكلمة يُمكن أن نرى أن الغلاف الجوي يتكون من سبع طبقات، وبالفعل فإنه يتكون من طبقات مختلفة تقع فوق بعضها البعض، وبالإضافة إلى ذلك فإن الغلاف الجوي يتكون؛ تماماً كما يصف القرآن الكريم، من سبع طبقات بالتحديد..، وهذه الطبقات تختلف في خصائصها الفيزيائية وفي ضغطها وأنواع الغازات الموجودة فيها (إذن).. هناك إعجاز آخر.. وهو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾؛ وبكلمات أخرى فإن الله جعل لكل سماء مهمة، وهذا صحيح.. فإن لكل واحد من هذه الطبقات وظائف حيوية لخير البشرية ولكل الكائنات الحية التي تعيش على الأرض، كل طبقة لها وظيفة معينة تتراوح بين تكوين المطر إلى الحماية من الإشعاعات الضارة وعكس موجات الراديو وحماية الأرض من آثار النيازك الضارة"[٥].

---

[٣] موسوعة ويكيبيديا العالمية.

[٤] د. فؤاد دمشقي؛ مقال بعنوان: "معجزة طبقات الغلاف الجوي السبع"، موقع د. فؤاد دمشقي.

[٥] عدنان أوكطار واسمه القلمي هارون يحيى؛ المعجزات القرآنية، مؤسسة البحث العلمي في تركيا (ص٢٦).

وتؤيد المعارف العلمية الحديثة أن الأرض كانت جسما ملتهبا قبل تكون سطحها، وأن غلافها الجوي قد تشكل من دخان الالتهاب؛ وتُضيف الدلالة على أن القمر كان جسما ملتهبا كذلك مزيدا من الإيضاح لتاريخ الكوكبين التوأم، يقول العلي القدير: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ١٧الإسراء:١٢، وعلى وجه أن آية الليل القمر وآية النهار الشمس؛ يمتد الوصف ليشمل تاريخ الشمس والقمر؛ فيكون المعنى أن القمر كان جسما ملتهبا قبل أن يبرد سطحه ويُمحى إشعاعه الذاتي، بينما كانت الشمس الأولية معتمة فأصدرت الضياء، قال الشوكاني: "(فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ) أَيْ: طَمَسْنَا نُورَهَا، وَقَدْ كَانَ الْقَمَرُ كَالشَّمْسِ فِي الْإِنَارَةِ وَالضَّوْءِ.. (وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً) أَيْ: جَعَلَ سُبْحَانَهُ شَمْسَهُ مُضِيئَةً تُبْصَرُ فِيهَا الْأَشْيَاءُ"[٦]، وقال أحمد حطيبة: "فالله جعل الليل آية وجعل النهار آية، وجعل آية النهار الشمس..، وجعل آية الليل القمر، قال: (فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ)، يعني محا من القمر نوره، وعلماء الفلك يقولون: كان القمر.. مُشتعلاً مُتوهجاً كالشمس، قالوا ذلك الآن، وقالها قبلهم ابن عباس قبل ألف وأربعمائة سنة؛ قال ذلك مفسراً هذه الآية..: "كان القمر مضيئاً كالشمس فمحا الله عز وجل النور الذي كان فيه، قال الله: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً)، بينة مضيئة يراها كل ذي عينين"[٧].

ولا يأبى لفظ (السموات) إنزاله على آفاق الأجرام الفلكية المُمكنة المشاهدة بالعين المجردة والمناظير وفق قرائن السياق؛ للأمر الصريح بتوجيه النظر إلى ما فيها: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ١٠يونس:١٠١، قال ابن عاشور: "قد عدَّ الله تعالى السماوات سبعًا وهو أعلم بها وبالمراد منها، إلا أن الظاهر الذي دلت عليه القواعد العلمية أن المراد من السماوات (آفاق) الأجرام العلوية العظيمة..، ويدل على ذلك أمور؛ (أحدها): أن السماوات ذُكرت في غالب مواضع القرآن مع ذكر الأرض..؛ فدل على أنها عوالم كالعالم الأرضي..، (ثانيها): أنها ذُكرت مع الأرض من حيث أنها أدلة على بديع صنع الله تعالى؛ فناسب أن يكون تفسيرها (آفاق) تلك الأجرام المشاهدة"[٨]، وقال أبو زهرة: "المراد من السماوات السبع (العُلَى).. مجموعات النجوم (أي البروج) المتطابقة طبقة بعد طبقة"[٩]، وفي مقابل بيان تعدد الآفاق العلوية ذُكِرَت الأرض بالإفراد لأن الأوصاف قائمة على المشاهدة بالنسبة للمخاطب الأرضي.

وفي سياق التذكير بخلق الله تعالى للكون المنظور؛ ورد التعبير: ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ ٢٠طه:٤، ولفظ (الْعُلَى) جمع العليا وتأنيث الأعلى، ولفظ (أعلى) على وزن (أفعل)؛ وهذه إحدى صيغ التفضيل، وتقتضي شيء أعلى من آخر، فأفادت إذن صيغة (الْعُلَى) وجود (سماء دنيا) تفارقها في التركيب وتماثلها في التكون من طبقات؛ وقد ضُمَّت في التعبير مع الأرض، قال محمد سيد طنطاوي: "قَدَّمَ خلق الأرض على خلق السماء لأن الأرض أقرب إلى المخاطبين وانتفاعهم بها أظهر"[١٠]؛ و"فصل بينهما بالهواء"[١١]، وتلي التذكير التفصيل: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ ٢٠طه:٦، وما بين الأرض والسموات الْعُلَى التي ابتدأ بها النظم في سياق ترتيب الخلق ليس إلا الغلاف الجوي للأرض، وما تحت الثرى الذي سَخَّرَ المُبْدِع القدير عوامل التعرية لتُمَهِّدُه ليصبح تربةً صالحة لتكاثر النباتات قبل مجيء الإنسان ليس إلا الغلاف الصخري، وترتيب خلق الكون المنظور إذن؛ هو على النحو التالي: سموات كونية عُلَى، ثم جميع الطبقات الداخلية للأرض، ثم الغلاف الجوي ومعه الغلاف الصخري، والتعبير: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا﴾؛ صريح بأن السطح الصخري المُمَيَّز بالجبال قد تشكل فوق الأرض الأولية، وهذا يؤكد لك أن التعبير: ﴿الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾؛ يعني في الترتيب هنا جميع الطبقات الداخلية للأرض.

---

[٦] محمد بن علي الشوكاني؛ فتح القدير، دار ابن كثير دمشق، الطبعة الأولى؛ ١٤١٤هـ (٣\ ٢٥٣).

[٧] أحمد حطيبة؛ تفسير أحمد حطيبة، دروس مفرغة نشرها موقع الشبكة الإسلامية، ورقم الجزء هو رقم الدرس، والصفحات ترقيم المكتبة الشاملة (١١١٩\ ٣).

[٨] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤هـ (١١\ ٣٨٥).

[٩] محمد بن أحمد أبي زهرة؛ زهرة التفاسير، دار الفكر العربي (١١\ ١٨٩).

[١٠] محمد سيد طنطاوي؛ التفسير الوسيط، دار نهضة مصر بالفجالة القاهرة، الطبعة الأولى؛ ١٩٩٧ و١٩٩٨ (١١\ ٧٢).

[١١] محمد سيد طنطاوي؛ التفسير الوسيط، دار نهضة مصر بالفجالة القاهرة، الطبعة الأولى؛ ١٩٩٧ و١٩٩٨ (١٩\ ٢٠٢).

ودلالة التعبير: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ ٤١فصلت:١٢، نظيرها: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ ٦٧الملك:٥، والزينة تمثيل يعني توهج أجسام ملتهبة مضيئة في الليل كمصابيح البيت، والضمير في: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ عائد على آخر مذكور؛ وهو: ﴿مَصَابِيحَ﴾، ووصفها بأنها ﴿رُجُوم﴾ صريح في استبعاد إنزالها على الأجرام السماوية في الفضاء وقصرها على النيازك والشهب في الجو تذكيرًا بنعمة دفع الجو لأخطار سماوية تَتَرَصَّد، وفي الاصطلاح العلمي إذا بلغ الحجر الفضائي سطح الأرض يسمى نيزك، وإذا سقطت حصيات الفضاء ودخلت الجو تحترق نتيجة الاحتكاك بالهواء وتُضِيء سماء الأرض فتسمى شهب، وخطر الرجم بالدقائق الفضائية قائم لكل عابر بالجو وفي أفق الكواكب؛ لكن بروج السماء أي تجمعات النجوم أمل بعيد للمسافات الشاسعة وسرعة الانتقال المحدودة، والتصريح بالشهب لرجم الشياطين يؤكد تفسير لفظ (مصابيح) بالشهب: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ ١٥الحجر:١٦-١٨، ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ ٧٢الجن:٨و٩، ولفظ (لَمَسْنَا) يشير إلى السماء القربى الملاصقة فيعني الجو.

والأمر صريح بإمكان توجيه النظر إلى ما في السموات العُلَى: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ١٠يونس:١٠١، وأشكل على بعض الفضلاء فخالفوه وقالوا إن الكون كله هو (السماء الدنيا) ولا يمكن النظر لبقية السماوات، ومرد الإشكال إلى التوهم بأن التعبير تمثيلا بالمصابيح يعني النجوم الثوابت لتوهجها، ولكن المحققون قد دفعوا هذا الوهم، وقالوا بأن النجوم ثوابت في مواقعها لا ينقص عددها؛ وإنما المُراد هو الشهب دونها في جو الأرض، قال الألوسي: "إطلاق الرجوم على النجوم وقولهم رمى بالنجم يُحتمل أن يكون مبنياً على الظاهر للرائي، كما في قوله تعالى في الشمس: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، وهذه الشهب ليست هي الثوابت؛ وإلا لظهر نقصان كثير في أعدادها، بل هي جنس آخر غيرها يحدثها الله تعالى ويجعلها رجوما للشياطين، ولا يأباه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِّلشَّيَاطِينِ﴾؛ حيث أفاد أن تلك المصابيح هي الرجوم بأعيانها؛ لأنا نقول كل نير يحصل في الجو العالي فهو مصباح لأهل الأرض..، والشهب من هذا القسم؛ وحينئذ يزول الإشكال"[١٢].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ. وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ. لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ. دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ. إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ ٣٧الصافات:٦-١٠؛ التخصيص بالكواكب قَيَّد تعبير ﴿السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ بأفق الكواكب؛ فأفاد أنها أقرب الأجرام السماوية دون عناقيد النجوم.

وكما لا يأبى لفظ (السموات) حمله على آفاق الأجرام الفلكية؛ لا يأبى كذلك حمله على طبقات الجو، والعبرة بالقرائن، ولا يأبى كذلك لفظ (السماء) حمله على الجو حيث تصريف تيارات الرياح والسحاب وحيث تُحَلِّق الطيور، أو أي شيء في العلاء بالنسبة للمُخاطب على سطح الأرض؛ كالسحاب أو فرع شجرة أو حتى سقف بيت، ودليلك المُرشد هو السياق، قال ابن باز: "ذكر جماعة من المفسرين.. في هذه الآية: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً﴾ ٢البقرة:٢٢؛ أن المراد بالسماء هنا هو السحاب، سمي بذلك لعلوه وارتفاعه فوق الناس، ومن هذا الباب أيضًا قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ ٢٢الحج:١٥؛ قال المفسرون معناه فليمدد بسبب إلى ما فوقه من سقف ونحوه، فسماه سماء لعلوه بالنسبة إلى ما تحته، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ﴾ ١٤إبراهيم:٢؛ فقوله هنا ﴿فِي السَّمَآءِ﴾ أي في العلو[١٣].. والأدلة في هذا الباب في كلام الله تعالى وكلام رسوله محمد ﷺ وكلام المفسرين وأئمة اللغة على إطلاق لفظ السماء على الشيء المرتفع كثيرة"[١٤].

وإن صح حمل النفاذ من أقطار الأرض وما يحيط بها من آفاق محلية؛ فقد رُفع الإشكال في فهم النبأ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ٥٥الرحمن:٣٣.

---

[١٢] شهاب الدين محمود الألوسي؛ روح المعاني، المحقق علي عبد الباري، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى؛ ١٤١٥هـ (١٧ ٢٧٢).

[١٣] السموات الغيبية في روايات المعراج علمها عند ربي؛ وتمنع تفاصيلها أن تدخل في الكيانات الحسية المشاهدة فوقنا، وسبيلها إذن التفويض إلى علام الغيوب جل وعلا.

[١٤] عبد العزيز بن عبد الله بن باز؛ مجموع فتاوى ابن باز، جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر (١١ ٢٥٩).

وتُطالع الدلالة صريحة على أن طبقات الجو تتمايز بتناقص الهواء مع الصعود لتعني أن الفضاء فوقها خلاء من الهواء: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ ٦الأنعام:١٢٥، قال المراغي: "أي إن من فسدت فطرته بالشرك وتدنست نفسه بالآثام.. مثله مثل من صعد فى الطبقات العليا فى جو السماء..؛ حتى إذا ما ارتفع إلى أعلى.. شعر بتخلخل الهواء.. فإن هو قد بقي فيها مات..، إن الله ضرب مثلا لضيق النفس المعنوي.. بضيق التنفس الذي يجده من صعد بطائرة إلى الطبقات العليا من الجو..، سبحانك ربى نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرها البشر، ولم يفقه معرفة كنهها إلا بعد أن مضى على نزولها نحو أربعة عشر قرنا.. من اختلاف الضغط الجوى فى مختلف طبقات الهواء، وقد عُلم الآن أن الطبقات العليا أقل كثافة فى الهواء من الطبقات التي هى أسفل منها، وأنه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق في التنفس نتيجة لقلة الهواء الذي يحتاج إليه..، وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيرا جليا.. وجاء الكشف الحديث وتقدمت العلوم فأمكن شرح مغزاها وبيان المراد منها"[١٥]؛ وقال محمد رشيد: "يَقِلُّ الْأُكْسُجِينُ فِي طَبَقَاتِ الْجَوِّ الْعُلْيَا وَيَكْثُرُ بِجِوَارِ الْأَرْضِ لِثِقْلِهِ.. فَهُوَ أَثْقَلُ مِنْ صِنْوِهِ النِّيتْرُوجِينِ"[١٦].

وفي مقام الخلق يسبق لفظ (السماء) بالجمع والإفراد لفظ الأرض في أغلب المواضع؛ ويستقيم حمله على الفضاء أو آفاق الأجرام الفلكية، ويرد بعد الأرض في خمسة مواضع؛ يستقيم حملها جميعًا على الجو أو طبقاته: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ٢البقرة:٢٢، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ ٢البقرة:٢٩، ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ ٢٠طه:٤، ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ ٤٠غافر:٦٤، ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ٤١فصلت:٩-١٢.

ويُمكن فهم الأربعة أيام لخلق الأرض على النحو التالي: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾؛ أي أوجد الأرض الأولية وأكمل بيضاويتها بعد أن كانت هباء منثورا، والتعبير ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾؛ والرواسي هي الجبال أبرز معلم للألواح القارية والحفاظ على اتزانها حتى لا تتمايل فوق دوامات الباطن، فيكون المعنى هو تشكيل القشرة الأرضية، وأما تقدير الأقوات فيعني نشأة الحياة الأولية، ولا يستقيم أن تنشأ حياة قبل أن يتشكل الجو ويتوفر الهواء، ولذا التعبير: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ لا يصلح أن يكون تعقيبا على العبارة الدالة على اكتمال الخلق: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾؛ وإنما على العبارة الدالة على نشأة الأرض الأولية: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فتكون العبارة الدالة على اكتمال الخلق اعتراض، ويكون مجموع يومي خلق الأرض ويومي خلق السماوات المحلية واكتمال خلق الجو أربعة أيام، ويكون خلق الجو في نفس فترة تكون الغلاف الصخري والمجموع أربعة أيام، أي من فترات الخلق الستة إن جاز التعبير عنها بالأيام سوى بالتمثيل؛ حيث لم تكن شمس بعد إلا عند اكتمال الخلق، وإذن يومي خلق الأرض داخلين في الأربعة أيام؛ ومثلهما يومي خلق الجو، قال السمين الحلبي: "(في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ) تقديرُه: في تمامِ أربعةِ أيام باليومَيْن المتقدِّمين..، قال الزجاج: (في تتمةِ أربعةِ أيام) يريدُ بالتتمَّةِ اليومين، وقال الزمخشري: (في أربعة أيام).. مدةِ خَلْقِ اللهِ الأرضَ وما فيها، كأنه قال: (كلُّ ذلك في أربعةِ أيامٍ.. بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ)، قلت: وهذا كقولِك بَنَيْتُ بيتي في يومٍ وأكْمَلْتُه في يومَيْن؛ أي بالأول"[١٧]، وبهذا قال جُل المفسرين، وورد في التفسير الميسر: "جعل سبحانه في الأرض جبالاً ثوابت من فوقها، وبارك فيها.. وقدَّر فيها أرزاق (الأحياء الأولية).. في تمام أربعة أيام: يومان خلق فيهما الأرض؛ ويومان جعل فيها رواسي وقدر فيها أقواتها"[١٨].

---

[١٥] أحمد مصطفى المراغي؛ تفسير المراغي، مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده، الطبعة الأولى، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م (١٨\ ٢٥).

[١٦] محمد رشيد رضا؛ تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب؛ ١٩٩٠م (١٨\ ٤٣٠).

[١٧] أبو العباس شهاب الدين المعروف بالسمين الحلبي؛ الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق د أحمد محمد الخراط، دار القلم دمشق (١٩\ ٥٠٨).

[١٨] نخبة من أساتذة التفسير؛ التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالسعودية، الطبعة الثانية؛ ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م (١١\ ٤٧٧).

كارك فلهلم شيله Carl Wilhelm Scheele
(١٧٤٢ – ١٧٨٦)

جوزيف بريستلي Joseph
Priestley (١٧٤٢ – ١٧٨٦)

كان كارك فلهلم شيله Carl Wilhelm Scheele (١٧٤٢ - ١٧٨٦) هو أوّل من اكتشف الأكسجين كغاز مستقلّ، وكان ذلك سنة ١٧٧١؛ إلّا أنّه لم ينشر أبحاثه إلّا سنة ١٧٧٧، وفي سنة ١٧٧٤ قام جوزيف بريستلي Joseph Priestley (١٧٣٣ - ١٨٠٤) وبشكل منفصل باكتشاف الغاز أيضاً أثناء البحث في آليّة عمليّة الاحتراق.

أنطوان لافوازييه Antoine de
Lavoisier (١٧٤٣ - ١٧٩٤)

وعلى الرغم من اكتشاف الأكسجين؛ إلّا أنّ دوره في الاحتراق لم يكن قد فُـهِمَ بعد، إلى أن أتى أنطوان لافوازييه Antoine de Lavoisier (١٧٤٣ - ١٧٩٤) وأعلن سنة ١٧٧٤ أنه مهم للحياة يساعد على التنفس والاحتراق، ولم يُعرف أن الهواء طبقة محدودة فوق سطح الأرض إلا عام ١٦٤٨؛ عندما أعلن بليز باسكال Blaise Pascal (١٦٢٣ – ١٦٦٢) أنّ الضغط الجوي يتناقص بالارتفاع؛ ولم يُعرف أن الجو طبقات لكل منها خصيصة تميزه إلا لاحقًا، واصطلحت هيئة الطيران الدولية حديثًا على أن أعلى مستوى للمجال الذي يمكن للطائرات التحليق فيه بأمان دون التعرض لخطر اختناق الركاب نتيجة تخلخل الهواء هو ١٠٠ كم فوق سطح البحر؛ وسمته خط كارمن Karman line، ولا شك إذن أن المعرفة العلمية المُدَّخَرة خلال التذكير بالنِّعَم والدعوة لوحدانية المُنْعِم سبحانه؛ هي تحقيق لوعد جزم به القرآن الكريم نُصرةً للدين الحق: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٢٧النمل:٩٣.

قُطُوف تَفْسِيرِيَّة

Interpretation picks

في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾؛ قال أبو زهرة: "السماء.. في هذه الآية ما علا وكان كالسقف المحفوظ"[١٩]، وقال ابن كثير: "ذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ الْأَرْضَ أَوَّلًا لِأَنَّهَا كَالْأَسَاسِ؛ وَالْأَصْلُ أَنْ يُبْدَأَ بِالْأَسَاسِ ثُمَّ بَعْدَهُ بِالسَّقْفِ"[٢٠]، وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ. وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ٢١الأنبياء:٣٣؛ قال الشوكاني: "مَحْفُوظًا عَنِ الْهَدْمِ وَالنَّقْضِ"[٢١]، وقال مخلوف: "مصونًا"[٢٢]؛ أي من التبدد، وفي النظم تمييز بين سماء الأجرام الفلكية كالشمس والقمر؛ والسماء التي وصفت بالحفظ من التبدد، وهي تُطابق الغلاف الجوي الذي بدونه ما نشأت على الأرض حياة؛ خاصة مع النسبة إلى المخاطبين في مقام المَنْ بلفظ ﴿لَكُمْ﴾، قال ابن عاشور: "وَالسَّقْفُ، حَقِيقَتُهُ غِطَاءُ فَضَاءِ الْبَيْتِ الْمَوْضُوعُ عَلَى جُدْرَانِهِ..، وَأُطْلِقَ السَّقْفُ عَلَى السَّمَاءِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ؛ أَيْ جَعَلْنَاهَا كَالسَّقْفِ"[٢٣]، "وَالْمُرَادُ بِالسَّمَاءِ هُنَا إِطْلَاقُهَا الْعُرْفِيُّ عِنْدَ الْعَرَبِ وَهُوَ مَا يَبْدُو لِلنَّاظِرِ كَالْقُبَّةِ الزَّرْقَاءِ وَهُوَ كُرَةُ الْهَوَاءِ الْمُحِيطِ بِالْأَرْضِ"[٢٤]، "وَأَمَّا وَجْهُ شَبَهِ السَّمَاءِ بِالْبِنَاءِ (كذلك) فَهُوَ أَنَّ الْكُرَةَ الْهَوَائِيَّةَ جَعَلَهَا اللَّهُ حَاجِزَةً بَيْنَ الْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ وَبَيْنَ (الفضاء)..، فَهِيَ كَالْبِنَاءِ فِيمَا يُرَادُ لَهُ الْبِنَاءُ (والسقف)؛ وَهُوَ الْوِقَايَةُ مِنَ الْأَضْرَارِ النَّازِلَةِ..، مَعَ مَا فِي مشابهة منظر الْكُرَةِ الْهَوَائِيَّةِ لِهَيْئَةِ الْقُبَّةِ، وَالْقُبَّةُ بَيْتٌ مَنْ أَدَمٍ مُقَبَّبٍ..، وَهَذَا كَقَوْلِهِ..: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾..، (وهو) مِنْ قَبِيلِ الْمُعْجِزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ..، وَيَكْفِي (الإيماء إلى).. الْفَوَائِدِ عَلَى الْإِجْمَالِ..؛ ثُمَّ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ فِي قَابِلِ الْأَجْيَالِ"[٢٥].

قال ابن بشير: "قوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾..؛ تفصيل هذه الآية في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ٤١فصلت:٩-١٢"[٢٦]، وقال الطبري: "عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾؛ قَالَ..:لَمَّا خَلَقَ الْأَرْضَ ثَارَ مِنْهَا دُخَانٌ؛ فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾، قَالَ: بَعْضُهُنَّ فَوْقَ بَعْضٍ"[٢٧]، وفي التفسير ورد التمييز بين سماء الأرض وسماء الكون، ففي تأويل أورده الطبري ورده الماوردي[٢٨] تصريح بأن الدخان أصل سموات الأرض أي طبقات الجو؛ لا سموات الكون: "الدُّخَانُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ لِلْأَرْضِ سَمَاءً"[٢٩].

---

[١٩] محمد بن أحمد أبي زهرة؛ زهرة التفاسير، دار الفكر العربي (١١ ١٨٩).

[٢٠] أبو الفداء إسماعيل بن كثير؛ تفسير بن كثير، المحقق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية؛ ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م (١٧ ١٦٥).

[٢١] محمد بن علي الشوكاني؛ فتح القدير، دار ابن كثير دمشق، الطبعة الأولى؛ ١٤١٤هـ (١٣ ٤٧٩).

[٢٢] حسنين محمد مخلوف؛ كلمات القرآن تفسير وبيان (ص٣٥).

[٢٣] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤هـ (١١٧ ٥٨).

[٢٤] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤هـ (١١ ٣٣١).

[٢٥] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤هـ (١١ ٣٣١).

[٢٦] د. حكمت بن بشير بن ياسين، الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، دار المآثر للنشر والتوزيع بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى؛ ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م (١١ ١٣١).

[٢٧] محمد بن جرير الطبري؛ جامع البيان، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى؛ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م (١١ ٤٦٣).

[٢٨] الماوردي؛ النكت والعيون، تحقيق السيد عبد المقصود عبد الرحيم، دار الكتب العلمية بيروت (١١ ٩٢).

[٢٩] محمد بن جرير الطبري؛ جامع البيان، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى؛ ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م (١١ ٤٦٣).

وأما ترتيب الخلق فتفصيله: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ٧٩النازعات:٢٧-٣٣، قال شمس الدين الشربيني: "والمراد بالسماء (آفاق) هذه الأجرام العلوية"[٣٠]، وقال ابن عاشور: "السَّمَاءَ (الكونية إذن) خُلِقَتْ قَبْلَ الْأَرْضِ؛ لِأَنَّ لَفْظَ ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أَظْهَرُ فِي إِفَادَةِ التَّأَخُّرِ..، وَلِأَنَّ أَنْظَارَ عُلَمَاءِ الْهَيْئَةِ تَرَى أَنَّ الْأَرْضَ كُرَةٌ انْفَصَلَتْ عَنِ (أصل) الشَّمْسِ كَبَقِيَّةِ الْكَوَاكِبِ السَّيَّارَةِ (في) النِّظَامِ الشَّمْسِيِّ (إذن)..: خَلْقَ السَّمَاوَاتِ (الكونية) مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْأَرْضِ..، وَ(السَّمَاءُ) إِنْ أُرِيدَ بِهَا الْجَوُّ الْمُحِيطُ بِالْكُرَةِ الْأَرْضِيَّةِ؛ فَهُوَ تَابِعٌ لَهَا مُتَأَخِّرٌ عَنْ خَلْقِهَا، وَإِنْ أُرِيدَ بِهَا (آفاق عناقيد الأجرام) الْعُلْوِيَّةُ..؛ (فهي) أَعْظَمُ مِنَ الْأَرْضِ فَتَكُونُ أَسْبَقَ خَلْقًا"[٣١]، وبهذا التأويل قد زال الإشكال كليًّا حول أيهما خلق أولا: هل السموات أم الأرض؟؛ وذلك لوجود سموات عُلَى تسبق الأرض في الخلق والنظم، وسموات للأرض بينهما تُذكر بعدها بترتيب الخلق: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ٢١الأنبياء:١٦.

والتعبير صريح في القرآن الكريم عن نظام تيارات الرياح حيث يوجد الهواء وتنتقل السحب في المنطقة بين سماء الكون والأرض: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٢البقرة:١٦٤، واستثنى الجو من بقية السماء، وخصه بتوفر الهواء حيث تسبح الطيور: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ١٦النحل:٧٩، وهذا تمييز صريح للجو بالهواء عن بقية السماء.

وفي مقام ترتيب الخلق؛ ورد التضمين ببيانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ٦٥الطلاق:١٢، ففعل الخلق يشمل ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ وما خلقه ﴿مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، وضمير ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ يعود على جمع مؤنث؛ وليس إلا: ﴿سَمَاوَاتٍ﴾، فالمثلية في: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾، والتقدير: "خلق سبع سماوات وخلق من الأرض سبع سماوات مثلهن"، قال ابن عاشور: "﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ عطف على ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾"[٣٢]، وقال الألوسي: "﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي وخلق من الأرض مثلهن"[٣٣]، "والأرض كونها سبع طبقات بين كل طبقة وطبقة كما بين كل سماء وسماء خمسمائة عام.. غير مُسلَّم؛ ﴿وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ لا يُثبتُه"، "وكثيرا ما يُقصد من العدد (سبع) التكثير لا الكم المُعَيَّن"، ويُفضي خلق الجو من الأرض بالجمع مع النبأ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾؛ أنها كانت في غاية الالتهاب، وأن دخان الإلتهاب أصل الغلاف الجوي قبل أن يستقر ويتحول إلى طبقات متمايزة الخصائص تمهيدًا لمجيء الإنسان.

والخلاصة أن التعبير: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾؛ والتعبير: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾.. ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾؛ لا يأبى حمل لفظ (السَّمَاءِ) على دخان كثيف أحاط بالأرض الأولية، ولا يأبى حمل لفظ (سَبْعَ سَمَاوَاتٍ) على تحول الجو الأولي إلى سبع طبقات؛ لكل منها خصيصة تميزها في حفظ الحياة على الأرض.

وأوجز لنا الشيخ القطان الدلالة بقوله: "يَصِحّ أن يُراد بِسَبْع سماواتٍ الطبقات المختلفة لما يحيط بالأرضِ، وذلك أن الله تعالى.. أكمل تكوين الأرض ودبّت الحياة على سطحها؛ (وكان قد) كيَّف سبحانه جَوَّ الأرض المحيط بها بما يلائم هذه الحياة ويحفظها من أهوال الفضاء، وهكذا كانت طبقات الجو المختلفة.. والحق أن هذه الطبقات لم تُعرف إلا.. (حديثًا).. فأنى لمحمد أن يعلم هذه الأمور إلا من الله العليّ الحكيم! لقد بعثه بالحق..؛ وعلّمه بالقرآن ما لم يكن يعلم"[٣٤].

[٣٠] شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني؛ تفسير السراج المنير، دار الكتب العلمية بيروت، ترقيم الشاملة (١١ ٩٠).
[٣١] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤هـ (١١ ٣٨٤).
[٣٢] محمد الطاهر بن عاشور؛ التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر تونس؛ ١٩٨٤هـ (١١ ٤٤٧٠).
[٣٣] شهاب الدين محمود الألوسي؛ روح المعاني، المحقق علي عبد الباري، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى؛ ١٤١٥هـ (١٢٨ ١٤٢)، و(١١٣ ٩١)، و(١٧ ٨١) بالترتيب.
[٣٤] إبراهيم القطان؛ تيسير التفسير، ترقيم المكتبة الشاملة (١١ ١٣).

الحَقْل العِلْمِي Scientific Field

Meteorology

الأرصاد الجوية

المَوْضُوع Subject

Atmosphere

الغلاف الجوي

نُصُوص مُتَعَلِّقَة Related Texts

- ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ٢البقرة:٢٢.
- ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ٦الأنعام:١٢٥.
- ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى. تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ ٢٠طه:٢-٤.
- ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ٢١الأنبياء:١٦.
- ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ ٢١الأنبياء:٣٢.
- ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ. فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ٤١فصلت:٩-١٢.
- ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ ٥٥الرحمن:٣٣.
- ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ ٦٥الطلاق:١٢.
- ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا. مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ٧٩النازعات:٢٧-٣٣.